# الفصل الثالث

- التخصيص فى حالة الأمة الإسلامية، لا ينفى الحقائق المميزة لكل شعب من شعوب هذه الأمة.
- بات من المستحيل أن يُغيب المشهد الإسلامى/ المسيحى، أو أن يظل ملفاً مغلقاً على مشاعر من الاحتقان.
- رفض الأقباط مبدأ التمثيل النسبى فى دستور ١٩٢٣ حتى لا ينشطر المجتمع بين أبناء الوطن الواحد.

obeikan.com

obeikan.com

## ثورة يناير.. روائح الربيع القادم

تبقى «الحقيقة» الخالصة، أم الخلود.. سر شريعة الوجود.. ديمومة الجذور التى لا تلتهمها النيران، فى تجددها مع إشراقة كل شمس، تخبرنا بأننا قد قطعنا مرحلة من أشواط التاريخ، بحيث لا نشك فى نسبة الأعداد الغفيرة من العبيد الذين تسربوا إلى مصر القديمة، مع من تقاطروا عليها من مختلف الأجناس، لينسلخوا فى سلك الجندية المصرية كمرتزقة، عبر موجات التدفق من البلدان الواقعة على شواطئ البحر المتوسط، ومن الهكسوس، والعرب والقوقاز، وقوازق المماليك، والجركس، والأرمن، واليهود، والألبان، والعثمانيين والشوام.

من الذى يستطيع أن يغض البصر ويغلق نوافذ العقل عن هذه الحقيقة؟

إزاء تلك المواكب التى اندمجت فى نسيج الأمة، نؤكد:

إن المصريين هم كل أولئك الذين استقروا بمصر وذابوا فيها وأقاموا عليها بصفة دائمة.

على الرغم من كثرة هذه الهجرات وتنوعها كماً وكيفاً فإنها لم تشكل منذ عصر الأسرات الفرعونية – وحتى الآن – إلا نسبة لم تتجاوز ١٠٪ من مجموع السكان:

«إن شعوباً مختلفة غزت مصر، لكن البلاد استطاعت مع ذلك أن تهضم هؤلاء الفاتحين جميعاً، فلم يتح لهؤلاء الغزاة أن يؤثروا فيها، فيما عدا العرب الذين فرضوا عليها دينهم(*) ولغتهم وفنوناً أجنبية، ومع ذلك فقد ظلت مصر، رغم هذا فرعونية الدم».(١)

(*) لم يحصل فى تاريخ الفتح الإسلامى أن أرغموا كتابياً أياً كان على التخلى عن دينه ولغته، ولكنهم يسروا للجميع ممارسة شعائرهم الدينية. (المؤلف).

(١) جوستاف لوبون (الحضارات الأولى).

نشك فى صوابية هذاالقول، وإلا لو كان صحيحاً لكانت البشرية لا تزال ترسف فى أغلال الماضى، بل ولظل محكوماً عليها بالجمود، وهذا الأمر ضد طبيعة الأشياء والتطور، إلى حد لا يمكن معه الزعم بأن الإنسان المصرى لا يزال يعيش فى تابوت من التحنيط منذ سبعة آلاف سنة.

ومن القصور الذهنى وعدم التقدير ألا تقع عين الباحث على تلك النتائج المستخرجة من عمليات التهجين، وأثر البيئة فى اللغة، والسلوكيات، وفاعلية الجينات الوراثية فى إعادة تشكيل خواصها.

إذن لا محل لمقولة «فرعونية الدم» بعد أن خلّص الإسلام المسلمين من فسائل الجاهلية، وإلا لغدا المصريون للآن فى صفوف المتنطعين، ومن يتصدون للتطور الحتمى، وجدلية الارتقاء من الأدنى للأعلى.

إن ما بنى بالقول على التخصيص والتعميم، لا ينفى القول بتعريف الراغب الأصفهانى للأمة: إنها كل جماعة يجمعهم أمر، إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد سواء كان ذلك الأمر اختيارياً أو تسخيراً:

«هذا التعريف الجامع بالرغم من تراثيته، يتعدى التعريفات المحصورة التى تقدمها الأدبيات الغربية، والتى ترفضها ولو ضمنياً جميع خطابات الحركة الإسلامية لأنها لا تتماشى ومفردات الدين الإسلامى القائمة على احترام التمايز بين الأقوام، إذا كان هذا التمايز لا يتعارض مع أصوله العقائدية، فالتخصيص فى حالة الأمة الإسلامية لا ينفى الحقائق المميزة لكل شعب من شعوب هذه الأمة بل يراد به تحديد الهيكل العام للأمة الإسلامية المنكوبة بداهة من شعوب متميزة الخصائص النفسية، العقلية، الثقافية، واللغوية خاصة.

إنه تطويع لمفهوم فرضته ظروف ومتطلبات المشروع الجديد والقائم على نقد، ورفض المفاهيم المستمدة من بيئات ثقافية، ومتعارضة مع خصائص البيئة والثقافة

المحلية».(٢)

لذلك فإن من الصواب أن ننأى عن «فرعونية الدم»، بل ومن كل دم أجنبى يحاول أن يفرض علينا لغته، وثقافته، حتى لا نكون ملزمين بما تنكبت به حياتنا المصرية من سلبيات على مدار عدة قرون.

لهذا، فنحن كنا ضد حوار تلك «الدوائر المغلقة»، خاصة منها ما كان يتعلق بمعالجة قضايا الوطن، كما أن ذلك لا يستقيم بحال بعد أن قضت ثورة ٢٥ يناير على جحيم جمهورية مبارك اللعينة.

ثم بات من المستحيل أن يُغيَّب المشهد الإسلامى المسيحى، أو يظل ملفاً مغلقاً على مشاعر من الاحتقان واللياذ بجدران العزلة حينما كانت الكنيسة إبان حكم مبارك المظلم لا تعليق لها على المشاكل المثارة إلا بتعليقها على شماعة الانكماش، مؤثرة عدم الزج بأبنائها فى صراع يأخذ بتلابيب الوطن، وبسبب صعود الحركات الإسلامية وتبنيها خطاباً عنفوياً، وكانت ترى تعثر أقدام المواطنة، بشكل ينبئ عن عدم المساواة الكاملة بين كافة أطراف الوطن وأبنائه.

لكن ما حدث فى ميدان التحرير خلال اشتعال ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ يجبُ ما قبله. هناك حدث المزج الوطنى الخالص من كل أدران الحياة. لم يقل أحد فى قلب الثورة أنا مسلم، ولم يقل أحد والقلوب تتسع لاحتضان الوطن: أنا مسيحى.

كانت رياح يناير تغمر النفوس بشذى روائح الربيع القادم، وحينما كانت خيوط المطر تنساب على الأجساد كأنها نسيج المحبة، صار ميدان التحرير طاهراً ومعداً لأن يقيم فيه المسلمون صلاتهم، ومباركاً لأن يقيموا فيه المسيحيون قداسهم.

(٢) د. عرنوس الزبير (مفهوم المواطنة بين المحلية وعالمية الدين فى خطاب الحركة الجزائرية بالجزائر) نقلاً من كتاب: العولمة والتحولات المجتمعية فى الوطن العربى. مركز البحوث العربية - مكتبة مدبولى ص ١٤٩.

كان السلام الاجتماعى يولد متحرراً من ربقة الاهتمام المشتت بالأشياء ذات الصفات الدنيوية المعيقة.. فى لحظة تاريخية فارقة، أسبغ التسامح على الجميع – مسلمين ومسيحيين – ثياب العافية والشفاء من أورام الماضى البغيض، ولم يكن وليد لحظة من الهوس الإصلاحى، إنما كان المصدر الرئيسى من خصوبة الوعى الشعبى فى تألقه على أرض ميدان التحرير وهو يتقدم ليكون المثال الأسمى لأحدث نموذج للحضارة المصرية.

ولكن دعونا لا نذهب بعيداً عن أرض ما قبل ٢٥ يناير ٢٠١١، لعل فى الاستعادة إفادة تشفى الجميع من القلق، حينما كانت تتراوح خطوات الأخوة المسيحيين بين الغياب الإرادى، وبين الغياب القسرى.

أفصح الغياب الإرادى عن وجهه فى علانية تسعى للهجرة إلى الولايات المتحد الأمريكية وبعض بلاد الشمال، أما الغياب القسرى، وقد يقال عليه: الغياب الاختيارى، فقد انحصر فيما يشبه النفى فى عزلة داخلية، وكانت هذه العزلة تبرر بحزمة من آراء المتوجسين خيفة من موقف جماعات الإسلام السياسى من المسيحيين (بالرغم من اجتهادات فقهية معتبرة تقر بالمواطنة للمسيحيين)، حتى غدونا نلقى على ساحة المجتمع نظرتين نظرة بيضاء ونظرة سوداء:

« أما صاحب النظرة البيضاء فإنه يرى فى كثيرين شيئاً يحبه وشيئاً يمتدح. لذلك يا أخى القارئ درب نفسك على هذه النظرة. لا تفكر فى عيوب الناس؛ إنما فكر فى فضائلهم، وما فيهم من محاسن.

إن الذى لا ينظر إلا إلى العيوب قد نجده ساخطاً على المجتمع، لا يعجبه شىء، قد يقف ينادى بالإصلاح، وقد يبحث عن شىء يهاجمه، وإن لم يجد يخترع شيئاً يهاجمه، وبعض أصحاب هذه النظرة السوداء وعدم الثقة بالمجتمع قد يتحول بعضهم من الهجوم إلى الاعتزال، فينطوون على ذواتهم، إذ لا يجدون

أحداً يعجبهم ولا شيئاً يرضيهم فهم ساخطون على شيء، وبعض هؤلاء قد يصابون بالكآبة».[٣]

لا شك أن الحديث عن العيوب هنا وهناك يزيد من رقعة التلوث، وقد يهدر الوقت فى تعميق الجراح. بل ويساعد على المزيد من تمزيق النسيج الاجتماعى والإيغال فى ارتكاب الكثير من الحماقات، بينما كان يمكن أن تحل – بسهولة – المشاكل العالقة بين أبناء الوطن الواحد، مسلمين ومسيحيين:

«وذلك بالإقبال على بناء مجتمع قومى على أساس مصلحة الشعب ومنجزات العلم والحضارة والمساواة القانونية والعملية بين المواطنين والعدالة بينهم، والتحول من تسييس الدين إلى تقصى جوهره الروحى».[٤]

باستقصاء جوهر الدين، والعمل على إشاعة النهضة الروحية والعقلية، لا بد أن يكون الجميع مسلحين، مسلمين ومسيحيين بالحقيقة التى مفادها أن الغرب الإمبريالى لا يهتم بديانة أحد حيث يتربص بالوطن الدوائر منذ أن بدأ فى سبعينيات القرن الماضى يعيد بناء الخطط لإحياء الهويات الطائفية وتنفيذها على خارطة شرق أوسطية جديدة.

ففى العراق، حقق ما أراد فى تدمير البلاد ذات الحضارة العريقة، وأشعل نيران الفتنة وقسم وحدة أرضها إلى ثلاث: شيعة.. سنة.. أكراد، وفى لبنان لا يزال يغذى النعرات الطائفية، بين السنة والشيعة والكنيسة المارونية،وفى السودان أشاع الفتن، وأشعل الحرب بين الحكومةوبين إقليم دار فور، ثم تكثفت جهوده حتى تحقق له ما أراد فى شطر جنوب السودان عن شماله.

وفى اليمن لا يكف الشعب عن المطالبة بإسقاط نظام على عبد الله صالح،

---

٣- البابا شنوده الثالث: نظرتان إلى الأمور – مقال جريدة الأهرام الأحد ٧ نوفمبر ٢٠١٠.

٤- سمير مرقص (مسيحيو المنطقة.. أى مستقبل؟) مقال جريدة الشروق- الإثنين ٨ نوفمبر ٢٠١٠.

وفى البحرين تفاقمت أزمة الخلاف بين الملك والسنة والشيعة، وفى ليبيا بدأ الثوار يقتطعون شرق البلاد ويسيطرون عليه ويزحفون إلى طرابلس العاصمة معقل معمر القذافى بمساعدة قوات حلف النيتو.

ولعلنا إذا استعدنا حديث الرئيس أوباما فى جامعة القاهرة سنراه قد تعرض للمسألة القبطية فى مصر، والمسألة المارونية والمسيحية فى لبنان بشكل لا يبعث فى القلوب الطمأنينة.

وما يثير العقل والنظر. أن معالجة مشاكل العرب على طاولة رؤساء الغرب، تتبلور فى تبنى خطط فرض الطائفية على مصر:

« وكل ما يريد قوله هو أن أخطاء الداخل، والقوى المعنية بالتقسيم الطائفى للشرق الأوسط فى الخارج نجحت فى دفع القضية إلى مكان بارز بين قضايا السياسة الدولية، ولكن يبقى الحل دائماً فى الداخل ».(٥)

وبعيداً عن أجواء التأثر بآراء من لا يريدون لمصر أن يظل كيانها حراً، قوياً، مستقلاً كانت تأتى الحلول من داخل المساجد والكنائس،ومن منظمات المجتمع المدنى حيث تحتشد وتشجب تلك المواقف الخارجية التى تشذ عن الصالح العام، وما كان الشعب يرى فيه بأنه لا يتفق مع المعتقدات الدينية، والوطنية والحزبية.

وحين يتأمل ثوار ٢٥ يناير ٢٠١١ تلك الصفحات المضيئة فى تاريخ الحركة الوطنية فسوف يرون الأقباط المصريين يرفضون فى صرامة مبدأ التمثيل النسبى فى دستور ١٩٢٣ حتى لا يذهبوا إلى شطر المجتمع بين أبناء الوطن الواحد، مثلما رفضوا من قبل حماية قيصر روسيا، وحماية لورد كرومر.

على العكس من ذلك تماماً. اتسمت سلوكيات اليهود المصريين بالنفعية الرخيصة والرغبة فى الاستقواء الأنانى اعتماداً على طلب الحماية من قناصل دول

(٥) عبد العظيم حماد (من يريد فرض الطائفية على مصر؟) مقال جريدة الأهرام ٢٠١٠.

الغرب فى مصر وكأنهم ليسوا من مواطنى مصر.

ويثبت التاريخ فى إعزاز أن قبطياًمصرياً تطوع لاغتيال رئيس الوزراء القبطى «يوسف وهبة باشا» عندما خرج على إجماع الأمة وقبل رئاسة الحكومة خلال تلك الفترة التى قضاها سعد زغلول ورفاقه فى المنفى:

«ونحن هنا لا نمتدح الاغتيال السياسى، ولكن نمتدح «الروح الوطنية» التى دفعت «عريان يوسف» لإحباط مساعى السراى والاحتلال لكسر إجماع الأمة باغتيال يوسف وهبة باشا، حتى لا يفعلها مسلم، فيتجدد الاتهام الذى شاع بعد اغتيال بطرس غالى باشا (الجد) قبلها بعدة سنوات والذى كان يعزو حادث غالى باشا إلى التعصب الإسلامى ضد الأقباط، وبمناسبة الحديث عن اغتيال بطرس غالى بتهمة ممالأة الاحتلال.

يجب ألا ننسى هنا أن كثيراً من الساسة المسلمين فى ذلك العصر اتُهموا بممالأة الاحتلال من أول محمد سلطان باشا فى أثناء الثورة العرابية. حتى أمين عثمان باشا وزير مالية الوفد الذى اغتيل لهذا السبب نفسه عام ١٩٤٦ على أيدى مسلمين».(٦)

لا يبقى فى سمواتنا سوى أجراس المحبة.. تتصادى فى النفوس.. يضحك العصفور على صوت ربابة شيخ، مصحوبة بهسهسة نسمة مشبعة ببراءة طفل رضيع، يرفرف بجناحين من النور فى شرفات الوطن.. ينطلق من عقيرته حباً: اسمعوا يا أسوياء.. يا ساكنى السفوح وضفتى النهر.. صوت البشير: دين رب العالمين.. قبط.. مسلمين.. (دين أغنياء وفقراء سواء).. الدين لله والوطن للجميع.

وكثر لغط الحديث فى نهاية حكم مبارك الاستبدادى، حتى غرقت الساحة المصرية فى تيارين فكريين، يرى كل منهما فى نفسه أنه الأجدر بالحياة: تيار يروج للحياة المدنية، وتيار يدعو لمجتمع دينى، يستند فى إقامة دعائمه على كتاب الله وسنة رسوله.

(٦) عبد العظيم حماد (من يريد فرض الطائفية على مصر؟) مقال جريدة الأهرام ٢٠١٠.

وما بين «المدنى» و«الدينى»، ظهرت أعراض التشققات الفكرية، وتشتت ذهنية المجتمع المصرى على نحو لا يستهدف سوى إصابة المواطن المصرى بحالة من عدم اليقين، ومن ثم يسهل السيطرة عليه وإخضاعه – فى تشوش – لقوانين أحكام الدولة الجائرة:

«إن بعض الجهابذة ما برحوا يلحون على فكر «الدولة المدنية» كحل للإشكال، وكان توظيفهم للفكرة واضحاً فى وضع ما هو مدنى مقابل ما هو دينى، بمعنى أن مرادهم بات محصوراً فى تحدى الدينى بالمدنى، ووضعهم موضع التضاد الذى يراد له أن ينتهى بإقصاء الدين وهزيمته، وهى فكرة خائبة ومغلوطة علمياً وسياسياً، فليس صحيحاً أن المدنى نقيض الدينى، ولا لعلاقة لما هو مدنى بحضور الدين أو العقيدة، ولكن فكرة المجتمع المدنى نشأت أصلاً لتحدى سلطة الكنيسة مستهدفة الخلاص من استبدادها، وإدارة المجتمع من خلال منابره الأصلية والمؤسسات التى تمثل الناس ولا تمثل سلطة الكنيسة، أو حتى سلطة الملك، وهى تعريفات علماء الاجتماع فليست وظيفة المدنى إقصاء الدينى، وإنما استثمار قيمه الإيجابية لخدمة الناس والمجتمع».(٧)

ومن يبغى معالجة أصل الداء يجده كامناً فى ظل نظام حكومات مبارك الفاسدة، حيث اتخذ له جيشاً من الإعلاميين والكتاب الذين جعلوا عقيدتهم التلون مثل حرباء حسب كل مناخ، فهم متواجدون فى الأوقات التى ترتفع فيها نبرة الحديث عن «الديموقراطية» و«اللاديموقراطية».

ولا عجب إذ رأيناهم بعد نجاح ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ يسارعون فى طلاء وجوههم بدربة وحذق، ويُطَعمون كتاباتهم بعبارات تواكب حركة المجتمع المدنى للنهوض بمسئولياته إزاء ما كان يطلق عليه «فائض التدين» لدى جماعة المسلميين والمسيحيين.

(٧) فهمى هويدى (أجراس المحبة وأفراحها) مقال – جريدة الشروق ١٠ يناير ٢٠١١ ص ١١.